LE POUVOIR DES MOTS

ROGER CAILLOIS

سلطان اللفظ [1]

٤ — المذاهب المتسرعة

والواقع أنه طبيعى جداً أن يحتل المشعوذون الميادين العامة ؛ فهى خير الأماكن التى يعرضون فيها أعمالهم البطولية . فلا يحتّم فيها أن يتسع التفكير نهجاً منتظماً ، وليس المهم فيها أن يلتزم الانسان الدقة فى تعبيره ، بل المهم أن يكون له حظ كبير من التهويش . فكلٌّ يعرف أن التأثير فى الجماهير لا يكون عن طريق المنطق ، بل خير من ذلك الضجيج والعجيج وترديد صيحات معينة عالية ، حتى ينتهى الأمر بهذا الترديد إلى أن يحدث بطريقة آلية الانفعالات التى يتوقعها رجل ماهر أو رجل معتوه يخضع هو نفسه للهذيان الذى ينشره . نعم إن العلماء والفلاسفة يدّعون أنهم فى ذلك أشد تحرجاً . ولكن كلاً من المفكر والمهرّج يستعير من اللغة أشراكها . فكلاهما يتملق حاجة مختلفة ، أحدهما يصف تأثير عقاقيره أو سياسته فى شكل مغر خلاب . والآخر يعرض مذهباً يزعم أنه ينطوى على حل لكل مشكلة وعلى تفسير لأحداث العالم جميعاً . وحسب هذا أن يستهوى معظم الناس . وللخطباء أن يختاروا ما يعنّ لهم من الوسائل ، فهى كثيرة . فريق منهم يفسّر كل شئ بالصراع بين الطبقات وبتطور الأحوال الاقتصادية . وفريق ثان يفسّره بالتنافس بين الأجناس ، وبجهود أقلها موهبة للتغلب على الأجناس الممتازة الخليقة بالسيطرة العالمية . على حين يردّ فريق ثالث جميع الأمور إلى النشاط الجنسى الذى يبدو تأثيره القوى فى كل شئ . وكان قوم من قبل يفسرون الأحداث بظواهر النجوم ، يسلكون نفس الطريق

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٧ (ابريل ١٩٤٦) .

ويصيبون نفس النجاح . فأساس المبدأ واحد ، والوسيلة لا يمكن أن تخفق وهى تطبق فى كثير من الثقة والاطمئنان . ويكفى وجود أداة مرنة لكى توصف الأشياء بألوان متناقضة فى آن واحد ، فتعرض على أنها بيضاء وعلى أنها سوداء فى الوقت نفسه ، وسرعان ما تنجح الحيلة . ويسير جداً أن نلحق أية نتيجة بالسبب الذى نكون اخترناه . فيكفى أن يكون بهذا السبب بعض العموم والإبهام . ولا يبقى بعد ذلك إلا أن نظهر أثره بالالتجاء إلى بعض الألفاظ الرئيسية الرنانة التى يقدّر أنها تشع الضوء من نفسها . فبعضهم يذكر « المنطق » أو « ارتفاع القيمة » ، وبعضهم الآخر يذكر « الاندفاع » أو « العقدة النفسية » أو « التمجيد » ، وفريق ثالث يذكر « طول الجمجمة » . فإذا كل شئ قد استضاء . فمثلاً يرى أحدهم أن فى لوحات مصوّر نزح إلى تاهيتى تعبيراً عن روح التوسع الاستعمارى الفرنسى . ويفسر ثانٍ الاتجاه الرأسمالى فى الاقتصاد بتأثير الميول نحو نوع من الشهوات الجنسية الآثمة ، ويقرر فى جد أن هذه الميول قد انقلبت من الأفراد إلى الجماعة ، على حين يستكشف ثالث أن فى مذبحة سان بارتيليمى أو فى الثورة الفرنسية تآمراً من الأجناس الدنيا ضد الأجناس الآرية المصطفاة . وفى كل مرة يكفى الالتجاء إلى لفظ معيَّن ، فإليه وحده يستند ما للتفسير من حظوة واعتبار . وهذا اللفظ يتحدى اللفظ ويعضله ؛ لأنه لا يمكن مناقشة مثل هذه التأكيدات الجازمة القائمة على غير أساس لها . فلم تنشأ إلا من استعمال آلى للفظ عام يصلح استعماله لجميع الحالات الواقعية أو التى يمكن تصورها . والأسباب التى يمتنع لأجلها إثبات أن هذه التأكيدات صحيحة هى نفسها التى تقف فى إثبات أنها باطلة . وطابعها التعسفى ذاته يحميها ويجعلها غير قابلة للتفنيد . فليس فى وسع أحد أن يثبت أن رسم جوجان ليس حتما تصويراً للتوسع الاستعمارى ، أو أن الاقتصاد الرأسمالى مستقل عن الميول الجنسية الآثمة ، أو أن لعبة الشطرنج ليست تمجيداً لعقدة « أديب » (فمن الواضح أن الملك الذى يجب قهره فى احترام ودون إزالته رمز للأب) . كما أنه ليس من دليل حاسم يمكن الاستناد إليه لاستبعاد الفرض الذى يقضى بأن الاستيلاء على سجن الباستيل مرجعه مؤامرة دبرها رجال سمر اللون ليقاوموا بها سيطرة الشُّقر ، أو مرجعه اقتران كوكب نبتون بأورانوس فى برج ساجيتير . وعسير ان نلغى أية علاقة تصل بين مبدأ عام وحدث خاص . ولنفرض أنه أمكن

تحقيق ذلك عن طريق معجزة ، أو على الأقل بشكل غير مباشر اى بإيضاح صلات أدق وأوثق بين الأشياء ، ففى هذه الحالة نفسها لن يوافق هؤلاء العلماء على أن فى هذا انهزاماً لهم . فسيتهمون خصومهم بأنهم ضحية مظاهر خدعتهم ، وأنهم يقفون عند الأشكال الخارجية للأشياء ، على حين أنهم إذا تعمقوا فحصها وحللوها تحليلا دقيقاً فسيستكشفون أن الدوافع التى بينوها هى التى أدت إلى وجود كل شئ . ولا يمكن بحال أن يتعرضوا للخطأ .

وبطبيعة الحال تطغى بعض تعليلاتهم على بعض . ولا ينتهون من التنازع فيما بينهم ، بل أكثر من ذلك فهم يحاولون أن يقهر بعضهم بعضاً فى نظرياتهم المختلفة ، فيفسر كل منهم تسلسل الأسباب التى أدت إلى إيجاد المذهب الذى يناهضه . وينجح فى ذلك دون عسر بفضل حديثه السحرى وحده ، هذا الحديث الذى يعتبره الآخر بحق جدلا لفظيا أجوف ، ولكن دون أن يتبين أن حديثه نفسه فى هذا الموضوع لا يفضل فى شئ الحديث الذى ينقضه . وكثيراً ما سمعت هؤلاء العلماء يحرّم بعضهم بعضاً . لا يُقدمون على ذلك بعد مناقشة حجج الخصم ، بل يسرعون إلى إدراج هذا الخصم بين الذين يستنكرهم مذهبهم الخاص . فالبسيكولوچى يدرجه بين هؤلاء التعساء الذين يسميهم المكبوتين ، ورجل الاقتصاد يدرجه بين أولئك الذين ينعتهم بالبورچوازيين الذين لا تقوم حججهم إلا على أساس من مصالحهم الخاصة ، ودارس الأجناس البشرية يدرج المتمرّد بين الطبقات الدنيا ذات الذهن الهدّام (كما يعلم ذلك كل إنسان) ، والمنجم مقتنع أنه حين يقرأ طالع الرجل البائس سيستكشف أنه ولد فى ظل نجم سيئ ذى أثر خبيث يمنعه حتى من أن يعترف بما للتنجيم من أساس قوى ودعامة وطيدة .

لذلك فسرعان ما يبت فى الموضوع بطريقة حاسمة ؛ لأن مدار الأمر ليس هو مناقشة الآراء والنظريات ، وإنما هو استخلاص الحكم على هذه الآراء والنظريات من أشخاص أصحابها . فلا يضطرب صاحب النظرية بسبب مثل هذا الحادث التافه الحقير الذى كان فضلا عن ذلك متوقعاً ، والذى يدخل على كل حال فى النظام العام للعالم على الصورة التى يصفها المذهب الذى يقدّسه . فيمر به دون أن يلوى عليه ، ويواصل فى يسر تأويل أحداث العالم على المنوال الذى يراه مذهبه . ألم أقل لك إنه معصوم من الخطأ ، وإنه ثابت الجنان لا يتزعج .

ولست أعرف شيئاً أشد احتقاراً للوافع من مثل هذه السيرة . إن تلجأ إليها العقيدة الدينية ، فلا غبار على ذلك ، فهى تقوم فى هذا بمهمتها . وأفهم حق الفهم أن رجل الدين يستند على الحقائق التى نزل بها الوحى فلا يتكلف إدحاض منطق الملحدين ، فهذا المنطق جاءهم من الشيطان . ورجل الدين يترك أمر الإقناع إلى النعمة التى يمنحها الله ، أو إلى النار التى يحرق فيها الملحدون . أما أن يحذو محترف التفكير هذا الحذو ، وفى غير وعى ، فهذا ما يزعجنى ويقلقنى . فلا بد من أن يكون للألفاظ متى أطلقت سلطان غير محدود فى ألاّ تعنى شيئاً واضحاً معيناً . وإذا قصرت هذه الألفاظ على وظائفها باعتبارها علامات تحكمية ، وإذا جمع بعضها إلى بعض ولم يجمع بينها وبين الأشياء ، فسرعان ما تقوى ويشد بعضها أزْرَ بعض ، وتنفى ماعداها ، فتكوّن مذهباً منظماً لاسبيل إلى قهره مهما يكن تافهاً . نعم تصبح ذات بأس ، وكأنه بأس لا حدّ له . فهى تمحو العالم ، ولا يقف فى سبيلها شئ ، لا المعلومات البديهية التى تلمسها الحواس ، ولا العلاقات الحتمية التى يوجدها العقل بين الأفكار ، ولا الحقائق المؤكدة الأدق التى يشعر القلب أنها أشد ثباتاً وأقرب إليه من سواها جميعاً . وكأن العالم كله قد غشيته ظلمة وأقصى إلى مرتبة ثانوية مبهمة غامضة بسبب هذا الستار المضطرب المرن الذى تسدله الألفاظ حين تُتقن تأليفها فى تركيب عظيم شامل .

وليس ينقضى عجبى من اتساع الخدعة ؛ وهى مستمرة عامة تشمل كل شئ ، لذلك لاتلحظ بسهولة . وهى تنجح فى أن تغرّ أشد الأذهان حذقاً وأن تجتذب لنفسها حتى المقدرة فى التعبير عن الآراء فى دقة ، فتخدر بذلك يقظة الأفكار الحذرة بطبيعتها . وأخطارها أشد حين تصوّب نحو أذهان أقل سموّاً ، حين تتجه على العكس من ذلك إلى قوات فظة سريعة الالتهاب ، لا يقيها من الضلال شئ ، تهاج إذ يلوّح لها بخرقة من القماش الأحمر وتهدأ فى مثل هذا اليسر . وتنشأ أضرار جمة من مثل هذا الاضطراب الذى قد يستتبع آثاراً بالغة فى السوء . ولو انى اندفعت إلى تمدادها لوقعت فى الخطأ الذى أنقده . على أنى ألتمس معذرة فى أن أعرض عبارة ذكرها كونفوسيوس ، وقد صادفتها فى بحث قصد به أيضاً توجيه النقد إلى إساءة استعمال لفظ معين وهو لفظ « متصوف » فقد سئل كونفوسيوس عما يوصى به الامبر لنج دى فى من إجراء يتخذه لاستعادة السلم ولرفع مستوى الخلق فى مملكته حيث بلغت الفوضى أقصاها .

أجاب كونفوسيوس : « وضع الألفاظ موضعها . » ثم شرح فكرته قائلا : « حين لاتوضع الألفظ فى موضعها تضطرب الأذهان ، وحين تضطرب الأذهان تفسد المعاملات ، وحين تفسد المعاملات لا تدرس الموسيقا ولا تؤدى الشعائر الدينية ، وحين لا تدرس الموسيقا ولا تؤدى الشعائر الدينية تفسد النسبة بين العقوبة والإثم ، وحين تفسد النسبة بين العقوبة والإثم لايدرى الشعب على أى قدميه يرقص ولا ماذا يعمل بأصابعه العشر . » ولست أدرى أكان مثل هذا الدوران ضروريا ، ولكنى أرى فى هذه الحكمة كثيراً من الصدق والعمق .

٥ — الخطر المحدق بالحرية

حين تفقد اللغة وضوحها وتستعمل بعض الألفاظ محل بعضها الآخر ، فما المقياس العام الذى يتيح للناس أبسط أوجه التبادل التى لايشوبها سوء التفاهم ؟ وحين يتعدى كل واحد اختصاصه باستعمال حديث خلاب ، ولكنه حديث يخلو من الدقة ومن المغزى ، فلا يمكن التمييز بين الحكيم من القول وسفيهه ، أو بين الغث والسمين ، ولا يمكن أن ينقل أى تعليم أو ان يفسر . وكأن الأمر متعلق ببابل حديثة لا تخرج منها جماعة لغات مختلفة ، بل حتى حين تستعمل لغة واحدة فلا بد للتفاهم من الالتجاء دائماً إلى الترجمة ، والترجمة مستحيلة لأنه لا توجد علاقة وثيقة أكيدة بين ألفاظ مضطربة غامضة لا توحى بنفس الصور إلى الأشخاص المختلفين .

لا تبقى بعد ذلك إلا علامات لا ينتظر منها إلا أن يكون لها آثار الطلاسم ، وهى على أى حال إشارات أكثر منها بيانات موضحة . ويفوز ذلك الذى يعرف كيف يستعمل أغلظ الوسائل لاستغلال هذه الألفاظ ، لا باعتبار ما تعنيه بل باعتبارها طعماً مغرياً ، من شأنها أن تلهب الشهوات وتثير ما يمكن أن يوجد أكبر كَمٍّ من النشاط النافع لغرض معين ، وفى أقل زمن ممكن . وتتولى فى معامل البيان إخصائيون مجدون صياغة أشد الوسائل تأثيراً ، ويضعون التراكيب والأوصاف التى ينبغى استعمالها للحصول على هذا الانفعال أو ذاك فى ثقة وتأكيد . ففى مثل هذه الأحوال من ذا الذى لا يوافق على ان ألفاظاً تختار فى مهارة ، وتردد ترديداً عامًّا ، وتقرن باستمرار بمشاعر معينة ، لا تصل فى جميع

الأحوال تقريباً إلى أن تحدث الانفعالات التى يراد إحداثها وليس مايدعو إلى العنف للإمعان فى الترويض وحذقه ؛ فالعلم وحده كفيل بذلك . ويخيل لكل واحد أنه مندفع اندفاعاً طبيعيا ومن تلقاء نفسه ، على حين يدفعه غيره فى هذا الطريق الذى مهده له فى حساب ماهر حاذق . هذا هو السبيل الذى يسلكه الانسان . وإن لم يحتط لنفسه فسرعان ما يخضع خضوعاً مطلقاً للانفعالات المنظمة . واستقلال الرجل المفكر آخر الأمر لا سبيل إليه إلا إذا اتبع حكم عقله . أما الألفاظ فينبغى أن ينفذ خلالها فيصل إلى الواقع ليطبق حكمه عليه . وحريته تكون عندئذ فى القرار الذى يتخذه بعد الإلمام بجميع الظروف . ولكنه إذا قصر اهتمامه على الألفاظ وحدها ، فأهمل الرجوع إلى تجاربه الشخصية ليحقق ما تعنيه هذه الألفاظ ، فالويل له ، لقد هلك ! وهنالك تستعمل الألفاظ لحمله على عمل ما يراد منه ، فيدفع إلى العبودية دون خشية من أن يحس ذلك . وفى وسع الطاغية الخبير المالك لأدوات الطغيان أن يملأه كما تملأ الساعة ، وأن يضبطه كما يروق له . والدعاية ما زال فنّا فى مهده ، ولكنها ظفرت من النتائج بقدر يجعلنا نشك فى أن الدولة ستعدل عن استعمال مثل هذه الوسيلة الناجحة الفعالة لتحصل من الناس على الطاعة ، بل على الحماسة ، وستعدل عن حرمان الفرد حريته بحبسه محتقرة مثل هذه الوسائل ، إذا استطاعت أن تنظم شهواته .

وهذا التصوير القاتم ليس وهميّا ، فأنه يصف حاله لا خيال فيها ، وفى وسع كل فرد ملاحظتها إذا ما استطاع أن ينظر بعينيه . فالقياس إلى كثير من الناس توجد هوة يزداد اتساعها بين تجربة غير كافية وبين مجموعة من الألفاظ تفوقها بكثير لا من حيث الاتساع فقط ، بل من حيث التعقد . وحين يكون الأمر متعلقاً بالألفاظ التى تدل على أشياء تقع تحت الحواس أو على حالات نفسية أولية بسيطة ، فليس ما يدعو بعد إلى الارتجاج . ولكن حين تجمع الألفاظ يبدأ الاتهام ؛ لأن بعض الفروق تمحى ويظهر الميل إلى المطابقة بين أشياء لا يمكن أن تكون مطابقة إلا من نواح معينة وقد لفت إلى ذلك كاتب شديد الحساسية إذ قال : « كيف يمكن أن نقال « الأطفال » ؟ فان لفظ طفل لا يمكن أن يجمع ، وإنما هو مفرد له مفهوم لايحصر . » . وكذلك الأمر حين

يجمع لفظ « الرجل » . فليس من الممكن أن نتحدث عن الرجال حديثاً دقيقاً صادقاً إلا إذا اقتصرنا على ما يمتاز به نوعهم ، واستبعدنا مايتفاوت فيه الأفراد . ومن ذا الذى يأخذ نفسه بمثل هذه الدقة !

وأقل لفظ من الألفاظ المجردة أشد خطراً من ذلك ؛ إذ يفترض عمليات شاقة لا ينبغى القيام بها فى خفة . واللفظ فى براءته الظاهرة ينقلها جاهزة إلى أذهان لا تتصور كنهها بأى حال من الأحوال . فهى تستخدم هذه الإشارة فى سذاجة تامة دون أن تتنبه إلى ما فى ذلك من خطر إذا لم تبدأ بتحديد معناها وباستعادة العملية الذهنية التى يدين هذا اللفظ لها بوجوده . وبهذا الشرط وحده يمكن اقتناء اللفظ ، وإلا فانه لا يزيد على كونه مستعاراً . وهذه هى مع الأسف حال أغلب الألفاظ بالقياس إلى معظم الناس . لم يزيدوا على أن سمعوها أو قرأوها فرددوها على الشكل الذى يبدو لهم أقرب إلى التصديق والاحتمال . ومثل هذه الألفاظ لا تشتمل على زيادة فى التعليم والتحصيل ، بل تعتبر على العكس من ذلك خطراً داهماً . فهذه الحال تجعل الإنسان أعزل وتفسد حكمه ، وتجعل من هذا المخلوق المضطرب فريسة سهلة يستغلها الداعية مهرجاً كان أو ماهراً . ولست أنكر أن أحدهما يحاول التغرير ، وأن الآخر يريد به الخير فيما يقال . ولكن الواقع أن كلا منهما ينزله إلى مرتبة الدمية التى يحركها كيف يشاء .

وقد يشق على الناس أن يقبلوا أن هذا المصير محتوم على الإنسان . وقد يشق عليهم أيضاً أن يجدوا خير الوسائل التى تعينه على التحرر من هذا الرق الخبيث . ولكنى لا أشك فى أن من الخير له أن تزيد مقدرته على الحكم على الأشياء حكماً سليما ؛ فهذا يحفظ عليه حريته الشخصية كاملة . فإنى لا أسأم ترديد القول إنه لافائدة له فى الحرية التى تترك له فى ظاهر الأمر إذا عرفت الوسيلة التى تسخر بها إرادته . لذلك أرجو أن يُعتاد الاحتراس من الألفاظ ؛ فعن طريق الألفاظ يمكن الوصول فى يسر إلى مفاجأته وإخضاعه .

بل أرجو ، ولكنى أخشى أن أرجو المستحيل ، أن يفحصها جميعاً فحصاً دقيقاً فيستبعد تلك التى تلقاها على سبيل المصادفة والتى يعجز عن أن يطابق بينها وبين حقيقة من الحقائق الواقعة . ليلغها إذا ما اضطر وهو يفحصها إلى الاعتراف بأنه يجهل ماتدل عليه وما تشير إليه . وفى هذا مطاردة للأشباح مماثلة

لتلك التى كان يوصى بها القاص . هنالك نرى كثيراً من الألفاظ والعبارات والتراكيب الجوفاء تنحلّ وتزول . وربما تركت هى أيضاً فى الذاكرة بقعة من العفن كتلك التى تتركها على الجدران الحشرات التى تخيلها ، تلك الحشرات التى لم يعد لها حق فى الوجود ، فلم تكن تستطيع الظهور إلا وسط الجماهير بفضل غفلة عامة ، ولكنها تضطر إلى الزوال حين تطارد ويتبين أنها غير ذات غناء .

ولا إخال هذه المطاردة تروق الكثيرين ، أو أنهم يقدرون عليها . ولاشك أن الحديث سيتتبع ، ثمناً لا سبيل إلى تجنبه ، هذا العدد العظيم من الألفاظ الهائمة الجوفاء . وطبيعى أن يلتقطها كل واحد فيستعملها دون كثير من التقيد كما يعنّ له . ولكن بعض الناس يبذلون جهدهم فى أن يكون استعمالهم لهذه الملكة الثمينة فى الحديث على خير الوجوه وأكملها ، بل يفخرون بذلك . وأظن أن عليهم أن يكونوا قدوة لغيرهم ، وأن أبسط الأمانة تقضى عليهم بألا يسيئوا استعمال السلطة الخطيرة الموكولة إليهم . وهم بلا شك لا يتعرضون لعقاب لو أنهم خانوا الأمانة ؛ بل قد يجدون فى ذلك مزايا مختلفة ، أولها تصفيق أولئك الذين يخدعونهم . ولكنهم بذلك يقصرون فى القيام بالواجب الذى تفرضه عليهم مكانتهم .

ويروى أن الصينيين لم يكونوا يملكون فى سالف الزمان للتعبير عما يريدون الا قطعاً صغيرة من الخيط يحدثون فيها عقداً معينة على أوضاع خاصة وفى أوقات متراوحة مناسبة . وكان موضع العقدة وشكلها يبينان فى عسر عما يريدون التعبير عنه . ثم اخترعت الكتابة . وظهرت مجموعات ضخمة من الكتب لم تراع فيها الدقة فى أداء الفكر . فلم يكن هنالك مايدعو إلى التفكير كثيراً للتعبير قليلا . بل كان الأمر على العكس من ذلك فى معظم الأحوال . وقد قلق أحد الحكماء من هذه الحال وصاح بهم قائلا : « سأردكم إلى التعبير بعقد الخيط » . وطبيعى أن هذه الصيحة لم تكن إلا مجرد رغبة لا يمكن تحقيقها . على أن هذا الحكيم كان مع ذلك يوصى أتباعه بالتفكير الصامت . والصينيون يكرّمون ذكراه لأنهم يرونه أكبر الحكماء .

رومير طايرا

نقله عن الفرنسية الدكتور توفيق شحاته